

عودة الق

□□□

قال النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي
بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب
الأشراف بالديار المصرية.

أترى مناما ما بعيني أبصر
القدس يفتح والفرجة تكسر
وقمامة قُمت من الرجس الذي
بزواله وزوالها يتطهر
ومليكم في القيد مصفود ولم
يُر قبل ذاك لهم ملك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فُتح الشام وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده
ولأنت في نصر النبوة حيدر
ملك غدا الإسلام من عجب به
يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرا به
فالرمح ينظم والمهند ينقر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو
ن خواضع حيث الجباه تُعقر

وقال صاحب «القدسيات» وهو الشاعر
الحكيم أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن
حسان لما عزم الصليبيون على استرجاع
القدس وفشلوا في ذلك:

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فأكذبوا كذبهم في وصف ربهم
وصدق الوعد مأمولا محوله
أما رأيت ابن أيوب استقل بما
يعيي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد خاروا لفتكته
فاستنفروا كل موهوب تغلغله
لماسيى القدس قالوا سوف نتركها
والرب في حفرة منها تمثله
فكم ملك لهم شق البحار سرى
لينصر القبر والأقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بـ فلا
إلى الخوامع ألقاه ترحله
استصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم
واستكثروا المال والهيجا تنقله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه
وكلما لج صدماء جل مقتله
سيف أمام فلسطين برى أمما
خلف البحار لقد أمهاه صيقله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في
جيش العدو فيسببهم تخيله



السلطان

أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن. وكل هذه ذوات معاقل ومعاصر وبحار وجزائر، وجوامع ومناظر وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يجرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها، ويحصده منها كفرة ويزرع إيماناً، ويحيط منائر جوامعها صلباناً ويرفع أذاناً، ويبدل المذابح منابر والكنائس مساجد، ويبيو بعد أهل الصلبان للذب عن دين الله مقاعد، ويقر عينيه ويعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ في الصور. ولما لم يبق إلا القدس، وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم، فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألفت وتآلفت على الموت، فنزلت بعرضته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته، فزاول البلد من جانب فلاناً أودية عميقة، ولجج وعرة عريقة، وسور قد انعطف عطف السور، وأبرجه قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار، فعدل إلى جهة أخرى كان للطامع عليها معراج، وللخيل فيها متولج، فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها، وضربت خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحمه السور بأكتافه، وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها وبرز إليها ثم بارزها، وحاجزها ثم ناجزها، فضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح، وصدع أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الجد عن عتق الصفح، فراسلوه ببذل القطيعة إلى مدة، وقصدوا نظرة إلى شدة وانتظاراً لنجدة، فعرفهم في لحن القول وأجابهم بلسان الطول، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها، ولا يفارق سهامها نصالها، فصاحت السور بأكتافها فإذا سهامها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر نسرًا من المنجنيق يخذل أخلاده إلى الأرض ويعلوه علوه إلى السماك، فشج مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجه ورفع مثار عجاجها، فأخلى السور من السيارة والحرب من النظارة، فأمكن النقب، أن يسفر للحرب النقب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الآخرق الدال على لطافة أنله، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض. وفتح في السور باب سد من نجاتهم أبواباً، وأخذ نقب في حجره قال عنده الكافر: «ياليقني كنت تراباً»^(١).

فحينئذ ينس الكفار من أصحاب الدور، كما ينس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور.

كتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققاً، وطارت فرقه فرقاً، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصا، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجذعت أنوف رماحه، ولطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث، فبيوت الشرك مهدومة، ونيوب الكفر مهتومة، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية وشجعائه المتوافية مذعنة ببزل المطامع الوافية، لا يرون لهم في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبذل السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

ولقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركة وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كافر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل وقتل منهم من فتكت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح الكفار، وعن أنصاف محيل فإنه قتلهم الأفلاق والرماح الأكسار، فنيلاو بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلته، وفغرت تلك القوس فاما فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه. وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الكفر مفقوداً والإسلام مولوداً، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه وأكد وصله بالدين وعلائقه وهو صليب الصليبوت وقائد أهل الجبروت، ومادهموا قط بأمر إلا وقام بين دهائمهم يبسط لهم باعه، ويحرضهم وكان من اليمين في هذه الدفعة وداعة، لاجرم أنهم تهافت على نارهم فراشهم، وتجمع في ظل ظلامه خشاشهم، فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عقد وأوثق، ويعدونهم سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه.

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صيفاً، البيضاء صيفاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة وهي وعزائم أوليائها، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلد كذا وكذا، وهذه

(١) سورة النبا - الآية ٤٠.

* مقتطفات من رسالة السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، يبشره بفتح بيت المقدس - عن صبح الأعشى ج ٦ من ص ٤٩٦؛ ص ٥٠٤.